زكريا أحمد

□ شيخ الملحنين

- عاش الجانب الأكبر من طفولته وصباه مطروداً
- شارك في ثورة ١٩ وخبأ الرسائل السرية في طيّات شال عمامته
- أنتج ١٠٧٠ لحناً بينها ٦١ من روائع «أم كلثوم»
- صادق أم كلثوم عشرين سنة .. ثم ساقها إلى المحاكم طوال عشر سنوات
- سر «مشنة» الفجل والجرجير التي حملها على كتفه إلى زوجته

تملكتني حيرة شديدة وأنا أقلب أوراق ومذكرات شيخ الملحنين زكريا أحمد.. فكيف يمكن تسجيل المحطات المهمة في مسيرة هذا العملاق في المساحة المخصصة لهذا الفصل، فقد هالني الإنتاج الغزير للحن كتب اسمه بحروف من نور في تاريخ الموسيقى الشرقية، حيث يحفل سجله بألف وسبعين لحناً تميزت جميعها بالأصالة والعزوبة والتفرد، كان من بين هذه الألحان «٦١» لحناً قدمها لأم كلثوم، من بينها روائع مثل «أنا في انتظارك» و«أهل الهوى» و«غني لي شوي شوي» و «قولي ولا تخبيش يا زين» و«هو صحيح الهوى غلاب» و«الأمل» و«صوت الآهات» وغيرها.. كما غنى له كبار المطربين الأغاني والأدوار والطقاطيق والتواشيح والأوبريتات والعديد من الأشكال الغنائية الأخرى.

وإذا كانت المسيرة الفنية لهذا العملاق قد حفلت بكل ما أبدعه، فإن سيرته الإنسانية لا تقل أهمية وتمتلئ بتفاصيل حياة عريضة حافلة بالنجاح والانكسار.. بليالي الأنس والسعادة، وبسنوات العذاب والضنى.. كل ذلك جعل من تسجيل حياة هذا العبقري مهمة صعبة لمن يخوض هذه التجربة، خاصة إذا كانت المساحة المخصصة لا تتسع لكل التفاصيل والمحطات المهمة.

المطرود

الاسم الكامل هو.. زكريا أحمد جعفر، تنتمي أسرته إلى قبيلة «مزيان» ببلدة سنورس بالفيوم. نزح والده إلى القاهرة والتحق

بالأزهر الشـريف، لكنه ترك الدراسة بعد قيام ثورة عرابي وتزوج فتاة من أسـرة تركية أنجبت له ثلاث بنات، لكنهن كن يمتن في الأسـبوع الأول لميلادهن، ثم تـزوج من زوجة جديدة أنجب منها ابنه الأوحد زكريا في يناير عام ١٨٩٦، وكانت أمنية الشيخ أحمد أن يكمـل ابنـه الطريق الذي بدأه، ويصبح عالمـاً بالأزهر بعد أن ألحقه بالكتّاب والمدرسـة الابتدائية قبل أن يلتحق بالأزهر. وبدأ زكريـا يلفت إليه أنظـار أقرانه من خلال جمـال صوته في قراءة القرآن والإنشـاد الديني، إلى أن بدأت هوايـة الغناء تطغى عليه ممـا أغضب والـده الذي بادر بطرده من البيت، ورغم وسـاطات الأصدقاء لكن الأب والابن وقف كل منهما عند رأيه.. زكريا يريد أن يسـلك طريق الغناء والموسـيقى، والشـيخ أحمد لا يرى لابنه مستقبلاً سوى أن يصبح عالماً في الأزهر.. وبعد سنوات اضطر الوالد للخضـوع لرغبة ابنه على مضض وأعاده للمنزل، لكن الحال كان قد تغير – فقد ماتت أمه وتزوج والده بأخرى، التي أخذت تتفنن في تدبـير المكائد وإثارة والده عليه، وشـهدت طفولة وصبا زكريا أحمـد حالات طرد عديدة، فقد طرده والده مراراً من منزله كما تم طرده من كتّاب الشـيخ «نكله»، بعد أن قام «بعضّ» الشيخ منصور أثناء تلقينه علقة سـاخنة لشـقاوته، التي انتقلت معه إلى الأزهر عندما لجأ إلى حيلة خبيثة حيث راح يقلب دبابيس عمامته حتى إذا ضربه الشـيخ على العمامة دميت كفه. وكان جزاءه الطرد من الأزهر، فراح يتابع الأذكار والموالد في السـرادقات وينصت لسماع

كبار المقرئين والمنشـدين ويقرأ كتب الغناء.. وبعد طرده من الأزهر أدخله والده مدرسـة ماهر باشـا بالقلعة، لكنه طرد أيضاً في اليوم الأول لالتحاقـه بها، وذلك لأنه لم ينقطع عن الغناء طوال وجوده في الفصل وفي الفسـحة، وفي هذه المرحلة خلع الشيخ زكريا الجبة والقفطان ليزداد الخلاف بينه وبين والده، ليلتحق بفرقة الشـيخ «درويش الحريري» للإنشاد الديني والسيرة النبوية ويظل بها لمدة عشر سنوات، إلى أن رغب في الالتحاق بفرقة الشيخ «علي محمود»، فقام الشيخ درويش الحريري بالتوسط له للالتحاق بفرقته، لكنه لم يمكث سوى أشهر قليلة ليطرده الشيخ على وليعود من جديد إلى الشـيخ الحريري، وبعد جولة مع الحفلات والأذكار التحق زكريا أحمد بفرقة الشـيخ «إسماعيل سكر» للإنشاد، واشتهر خلال هذه المرحلـة بسـرعة حفظه لأغاني وأدوار كبـار الفنانين حتى اسماه «كامل الخلعي» بالملقاط.

ولعـل أكثر المحطـات أهمية في تكوين شـخصية زكريا أحمد الموسـيقية، هي الفترة التي تلقى فيها التعليم على يد الموسـيقار الشـيخ درويش الحريري، الذي رصد حبه وولعه بتعلم الموسـيقى وسرعة حفظه ونبوغ حاسته الموسيقية، وقدم له الدروس الموسيقية وعلـوم المقامات، كما اسـتفاد زكريا أحمد كثـيراً من الفترة التي أمضاهـا في بطانة الشـيخ علي محمود، ومتابعته للتسـابيح التي بـرع في تقديمها الشـيخ قبل صـلاة الفجر من مقامات موسـيقية متعـددة وبإتقان بالغ، إضافة لتلقيه دروسـاً من الشـيخ «محمود

عبد الرحيم المسلوب» أستاذ الموشحات العربية، وكذلك متابعته «لعبده الحامولي» أهم مطربي القرن «١٩»، والملحن الفذ «محمد عثمان»، الذي برع في تلحين الأدوار وغيرهما من أفزاز الغناء والتلحين، مثل إبراهيم القباني وإسماعيل سكر والشيخ أحمد الحمزاوي وغيرهم.

بداية الاحتراف

ويذكر أن زكريا أحمد قد شارك في ثورة ١٩١٩، وكثيراً ما حمل الرسائل السرية من ثوار القاهرة إلى الأقاليم، التي كان يذهب إليها لقراءة القرآن والإنشاد، حيث كان يخبئ الرسائل السرية في طيّات «شال عمامته».

وقد شهد عام ١٩١٩ بداية تألق الشيخ زكريا أحمد وشهرته كملحن له أسلوب متميز، مما رشحه للتعاقد مع إحدى شركات الاسطوانات لتقديم ألحانه.. وكانت هذه بداية رحلة الاحتراف.

وتشهد خزانة إبداع شيخ الملحنين زكريا أحمد خمس وستين أوبرا وأوبريت قام بتلحينها لكبار المطربين والفرق الفنية، يعد أبرزها «دولة الحظ» التي لحنها لفرقة «علي الكسار» عام ١٩٢٤، وتبعها برواية «الغول» و«ناظر الزراعة» و«عثمان ح يخش دنيا» عام ١٩٢٥، وقد تضمنت الروايات التي لحنها زكريا أحمد ما يزيد على خمسمائة لحن.. كما أجاد شيخ الملحنين تلحين الأدوار والقصائد والطقاطيق، حيث استطاع أن يهز مشاعر سامعيه بأدائه لتلك الإبداعات، رغم أن صوته كان أجشاً، لكن طريقته المميزة

في الأداء كانت مثار الإعجاب، ويذكر أنه قام بتلحين ثلاث وخمسين مسرحية غنائية، ويؤكد الخبراء أن المسرحيات التي لحنها الشيخ زكريا تتشابه مع ما كان يقدمه «سيد درويش»، بما تضمه من نقد شديد وتصوير للأوضاع الاجتماعية. ومع ظهور السينما والمسرح الغنائي بدأ انتقال زكريا لهذه الفنون الجديدة، فشارك في تلحين أغنيات سبعة وثلاثين فيلماً تضمنت إحدى وتسعين أغنية.

ولا يمكن إغفال الجدل الذي أثاره بعض من ناصروا شيخ الملحنين العداء، واتهامه باقتباس ألحان لسيد درويش. لكن بعض المؤرخين والخبراء أكدوا أن كثيراً من ألحان زكريا أحمد جاءت امتداداً لألحان سيد درويش رغم أنه عاصره. إلا أن ألحان زكريا تميزت بالتوغل في الشرقية كما تمتلئ بالصور الشعبية.

والجدير بالذكر أن زكريا أحمد قد كون ثنائياً فريداً مع الشاعر الكبير بيرم التونسي، وقدما العديد من الإبداعات التي لا يمكن أن تمحى واقتربا كثيراً من بعضهما، ويذكر أن زكريا أحمد قد توفى في ذكرى الأربعين لوفاة بيرم.

الذين اقتربوا من زكريا أحمد يقرون جميعاً أن له مزاجا خاصا، كما كان إنساناً حساساً للغاية خاصة ما يمس كرامته وعزة نفسه. ولا يمكنه التنازل عن أي تجاوز فيهما. كما كان كريماً يحنو على الضعفاء.

مع أُمّ كُلثوم

يـــروي زكريا أحمد قصـــة لقائه الأول مـــع أم كلثوم فيقول: في عام ١٩١٩ كنت قد ذهبت إلى الســـنبّلاوين بصحبة المرحوم الشيخ أبـــو العلاء محمد المقرئ والمغني الشـــهير، لإحيـــاء ليلة من ليالي رمضان، وكان وجهاء القوم يحتفلون بهذا الشـــهر المبارك احتفالاً كبيراً، ويعدون له من وســـائل الســـمر اللطيف مـــا يُحيي القلوب وينعش النفوس.

واستقبلنا علي بك أبو العينين صاحب السهرة بالترحيب الكبير، وقدم لنا المرحوم محمد أفندي عمر القانونجي الذي كان كثير التردد عليه. وقامت بيني وبين عمر أفندي الألفة. وأخبرني أثناء حديثه معي بأن هناك فتاة صغيرة السن، جميلة الصوت تدعى أم كلثوم، ولو تعلمت أصول الغناء سوف تصبح مطربة عظيمة.

ولم يسعدني الحظ في هذه الليلة برؤية هذه الفتاة الصغيرة.. ولم تمر إلا أيام معدودة. ودعيت مرة أخرى إلى الســـهر وفي هذه الليلة قابلتها، وكانت بصحبة والدها وشقيقها، واستمعوا لي واستمعت إليها. ففرحت بها وتنبأت لها بالمســـتقبل الكبير، ونشأت بيننا صداقة وطيدة دفعتني إلى أن أهدي إليها موشحا وطقطوقة..

ودعوتهـــا إلى القاهـــرة في حفل ضم مجموعة مختـــارة من أبناء العائـــلات ورجـــال الفن، ومن بينهم المرحومان الشـــيخ أبو العلاء محمد والشيخ علي محمود.. وقد صادفت أم كلثوم في هذه الحفلة نجاحا كبيرا.

وتعرفت أم كلثوم في هذه الليلة بالأستاذ القصبجي والدكتور محمد صبري الذي اشتهر بحبه للتلحين، كما كانت هذه الحفلة سبباً في أن يبدأ الحاج صديق أحمد متعهد الحفلات المشهور في تنظيم حفلات لها، في فترات الاستراحة بين فصول روايات الأستاذ علي الكسّار، وكان يقوم بتلحين المقطوعات لها الأساتذة أبو العلاء والدكتور صبري ومحمد القصبجي.

وكنت في هذا الوقت أقوم بتلحين روايات «الكسار» فدعتني «أم كلثوم» إلى تلحين بعض أغانيها، وذلك بمناسبة تسجيل عدة اسطوانات لها.. وكان أول ما لحنت لها طقطوقة «اللي حبك يا هناه» من تأليف أحمد رامي، و«هو ده يخلص من الله» تأليف بديع خيري، وكان ذلك نحو سنة ١٩٢٥.

والغريب أن «زكريا أحمد» الذي ربطته بأم كلثوم صداقة قوية على مدى أكثر من عشرين عاماً، قد شهدت خصومة عاصفة قادتهما إلى المحاكم بسبب «كلمة» قالتها الست واعتبرها زكريا ماسة بكرامته، وفي ساحات القضاء برزت المرافعات والمذكرات وتقارير الخبراء، وعبثاً حاول الأصدقاء المشتركون أن يفضوا هذا الاشتباك وإعادة المياه إلى مجاريها، فقد استبد الفريقان برأيهما، لكن بكلمة واحدة من القاضي الحكيم انهار جبل الجليد وتلاشت أسس الخلاف وأسبابه، أما الخاسر الأكبر في هذه القضية فكان عشاق فنهما الراقي والأصيل.. حيث استمر هذا الخلاف أكثر من عشر سنوات.

صاحب القلب الكبير

الحكايات التي تروي عن إنسانية زكريا أحمد وقلبه الرقيق كثيرة، ولعل أشهرها عندما عاد الشيخ إلى بيته، ليجد في طريقه بائعة «فجل» تجلس في البرد القارس، ومعها طفلتها الصغيرة التي يكاد البرد يقضي عليها.. ويسألها «زكريا» البضاعة بتاعتك دي بكام؟.. وتقول المرأة بسخرية وبتسأل ليه يا سيدنا الافندى؟.. وأضافت قائلة في تهكم.. البضاعة دي باتنين جنيه يا حضرة.. وتفاجأ المرأة بأن الأفندي يضع يده في جيبه، ويخرج الجنيهين ويعطيهما للبائعة، ويقول لها «يالا يا ست قومي روحي لأولادك»، وأخذ منها مشنة الفجل وحملها على كتفيه سائراً بها إلى البيت، حيث استقبلته زوجته لتراه وقد ابتلت بدلته بالماء الذي تساقط من مشنة الفجل والجرجير، وبعد أن حكى لها الحكاية قالت وهي تضحك.. كونك دفعت اتنين جنيه لواحدة غلبانة فدي حاجة كويسة، لكن قولي بقى ليه جبت معاك المشنة والفجل وبوظت بدلتك؟.. يضحك الشيخ ويقول «أصل أنا لو سبت المشنة للست مش حتروح بيتها، حتفضل قاعدة لغاية ما تبيع الفجل والجرجير».. وهكذا ظلت زوجته تهدي للجيران حزم الفجل والجرجير، بعد أن تحكي لهم حكاية الشيخ وقلبه الكبير.

وهكـذا أعزائي القراء.. ألم أقل لكم منذ البداية أنني وقعت في مشـكلة. ماذا أكتب وماذا أترك من هذه الشخصية الثرية بالإبداع والإنسانية؟.. وعذري أنني حاولت.

مع ابنته آخر مزاج

مع ثومة والقصبجى والسنباطى وفريد الأطرش

زكريا يتصالح مع ثومة أمام القاضى